المناهج النسقية عند عبد الملك مرتاض – قراءة في أعماله الأدبيّة والنّقديّة

Systematic approaches in Abdelmalik Mortad A Reading of his Critical and literary works

محمد عبد الفتاح مقدود [1] يونس بوناقة [2]

1–جامعة الشلف،الجزائر،الاميل/mekmedadef@gmail.com

2–جامعة الشلف،الجزائر الاميل/ynsbounaga@gmil.com

تاريخ الاستلام:2020/12/25 تاريخ القبول:2021/01/24 تاريخ النشر: 2021/12/26

ملخص : استأثر موضوع الانتقالية الراديكالية لعديد النقاد العرب المعاصرين من توظيفاتهم للمناهج السياقية وتوجههم المطلق لاستعمال المناهج النسقية بنصيب وافر من الاهتمام والعناية لدى القراء والنقاد الأخرين على حد سواء، وهو ما جعل القراء والنقاد يقفون وقفات نقدية متأنية تروم إلى استظهار دواعي هذا الانسلاخ شبه الكلي من توظيف المناهج السياقية إلى توظيف المناهج النسقية، أم أنه كان ثمة قصور في توظيفاتهم للمناهج السياقية، وقد استكملت المناهج النسقية ذلكم القصور. ويبقى أبرز أولئكم النقاد العرب المعاصرين الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض، وما يقدمه من عطاء جزيل للنقد الأدبي المعاصر على وجه الخصوص، وللغة العربية بشكل عام .إذن، ما دواعي اهتمام عبد الملك مرتاض الكبير بالمناهج النسقية في عديد مصنفاته النقدية، وحثه على استعمالها دونما سواها من المناهج السياقية؟ وهل ثمة نقط قصور جعلت عبد الملك مرتاض يرفض –ولو نسبيا– توظيفه للمناهج السياقية في أواخر مؤلفاته وانكائه على المناهج النسقية توظيفا واشتغالا؟ وإلى أي حد قد وفق عبد الملك مرتاض في توظيفاته للمناهج النسقية في عدد من مؤلفاته الأدبية والنقدية؟

الكلمات المفتاحية :

عبد الملك مرتاض، المناهج النسقية، النقد الأدبي المعاصر، السياق، الانسلاخ، القصور، الانتقالية الراديكالية.

Abstract: The issue of radical tansition was affected by the over use of the contextual approaches by the Contemporary Arab Critics and their absolute relying on using systematic approaches .This wht made readers and critics to stand of the reasons behind this almost total alienation of the use of systematic approaches ,or was it deficient in their employment of contextual approaches ,and therefor the systematic approaches complemented that deficiency . Abdelmalik Mortad remains as the most prominent figure among the contemporary arab critics and what he offers to Arab Criticism in particular and the Arabic language in general .So what are the reasons behind this deep interest by Abdelmalik Mortad in using systematic approaches in his writings? and is there a deficiency that made him reject the contextual approaches in his last works ,and relying only ob the systematic approaches ? And to what extent it was possible for Abdelmalik Mortad in applying the systematic approaches?

Key words : Systematic approaches,contemporary Arabic criticism , alienation, defficiency ,Radical transition .

المؤلف المرسل: محمد عبد الفتاح مقدود [1]

mekmedadef@gmail.com

-المناهج النّسقيّة وتوظيفاتها النقدية عند عبد الملك مرتاض:

ليس من شكّ يعتور أيّ دارس للنّقد الجزائريّ الحديث، ما عاشه من انتقاليّة واضحة انطلاقا من ثمانينيّات هذا القرن، حيث خرجت القراءات النّقديّة لعديد النّقاد الجزائريّين من ثوب القراءة السّياقيّة الخارجيّة إلى القراءات النّصيّة النّسقيّة، ولعلّ أبرز النّقاد الذين تمثّلوا لهذه القراءات النّقديّة نجد: عبد الملك مرتاض، ويمثّل كتابه الذي ألّفه بعنوان "النّص الأدبيّ من أين؟ وإلى أين؟" بمثابة نقلة رائجة في تاريخ النّقد الجزائريّ.

ولقد انقسمت القراءات النّقديّة النّصيّة الحديثة إلى عدّة مناهج، وهي على العموم مناهج نقديّة غربيّة بحتة، ونذكر أبرزها: البِنويّة، السّيمائيّة، والأسلوبيّة، والتّفكيكيّة أيضا، ولقد كان للنّاقد عبد الملك مرتاض باعا في كلّ منهج من هذه المناهج النّقديّة المذكورة.

1-1- المنهج البِنويّ في تفكير عبد الملك مرتاض النّقديّ:

إنّ أوّل ما يستوجب علينا الوقوف عليه في موضوعة المنهج البِنويّ عند عبد الملك مرتاض أن نشير إلى فكرة تصحيحه للّحن المتداوَل على ألسن النّقاد ومنذ ردح من الزّمن في مصطلح البِنويّة وقولهم غَلطا وخَطأ ولَحنا (البنيويّة)، إذ يرى عبد الملك مرتاض بأنّه "يمكن أن يقال نحويّا البنيّة على مراعاة الأصل، والبِنويّة على الإعدال." (مرتاض، 1996) ، وهذا توضيح جليّ من النّاقد إلى أن تنقشع الضّبابيّة عن هذا المصطلح النّقديّ الذّائع التّداول وكثير الاستعمال بين النّقاد والباحثين على السّواء.

وأمّا عن المنهج التّطبيقيّ في هذا المنهج النّقديّ الزّئبقيّ، فقد ذكر عبد الملك مرتاض بأنّ المنهج البِنويّ إنّما هو نقيض المناهج السّياقيّة، وبخاصّة المنهج التّاريخيّ، فيري بأنّه في المنهج البنويّ "لا بيئة، ولا زمان، ولا مؤثّرات، ولا هم يحزنون، وإنّما هو نصّ مُبدَع نقرؤه، فهو الذي يعيننا، فهو الذي يجب أن ندرسه ونحلّله بالوسائل العلميّة، أو الوسائل الأقرب ما تكون إلى العلم." (مرتاض، الألغاز الشعبية في الجزائر، 2007)، ويدلّ هذا القول وبوضوح تامّ، دونما أيّ غموض بأنّه للمنهج البِنويّ الدّور البالغ في التّعامل مع النّصوص الأدبيّة مباشرة، وهو ما يُؤتي أكله ونتاجه على المتلقّي، بعكس المناهج السّياقيّة الخارجيّة التي تتعامل مع النّص من جانبها البرّانيّ لا الجوانيّ.

ولعلّ أبرز مؤلَّف يمكن أن يكون قد أبان فيه عبد الملك مرتاض عن ملامح وأطر المنهج البِنويّ، كتابه "الألغاز الشّعبيّة في الجزائر" حيث أنّه "قد قسّم هذا المؤلَّف إلى قسمين:

– **القسم الأوّل:** في مضمون الألغاز الشّعبيّة الجزائريّة.

– **القسم الثّانيّ:** في الشّكل الفنّيّ للألغاز الشّعبيّة. (فوضيل)

ولقد ذكر عبد الملك مرتاض مصرّحا اعتماده على المنهج البِنويّ في كتابه "الألغاز الشّعبيّة في الجزائر" وما أدّاه ذلك المنهج من أثر إيجابيّ في عمليّة تلقّي الأمثال وفهمها، ومعربا عن ذلك في قوله: "وإنّما يتجلّى المنهج البِنويّ –أو عناصر من أصوله– على الأقل في القسم الثّانيّ الذي ينصبّ على دراسة نصوص الألغاز الشّعبيّة لغة وأسلوبا، فاللّغة من حيث تعدّ أصوات دالّة، وتبعا للأصوات يتحدّد المدلول والأسلوب من حيث الهيكلة السّائدة في بناء ألفاظه، وقد توقّفنا خاصّة لدى المصطلح الصّوتيّ في الألغاز." (مرتاض، الألغاز الشعبية في الجزائر، 2007) ، ونمثّل لذلك بعدد من الألغاز التي قدّمها النّاقد:

1– بَقرتي سنّي سنّي تُغدا للبحر وتجيني. (مرتاض، الألغاز الشعبية في الجزائر، 2007)

2– تبدا بالسّين ما هي سلسلة ما هي سكين ما هي مشروع اللّبلانة، فكّها وإلاّ نُضْ من حذانا. (مرتاض، الألغاز الشعبية في الجزائر، 2007)

فهذه مجموعة من الألغاز التي هي شائعة بين أوساط الجزائريّين، وقد وقف عندها عبد الملك مرتاض قارئا لها من وجهة بنياتها الصّوتيّة لها، ودلالات هذه البنيات على معناها، ونوضّح ذلك فيما سنبيّنه في الجدول الذي نخصّصه للفونيم، وإنتمائه الصّوتيّ، وأيضا خانة لوظيفة الصّوت، وهو كالآتي: (فوضيل)

I. الفونيم	II. إنتماؤه الصّوتيّ	III. وصف وظيفة الصّوت
IV. –س	X. – أسليّ	XV. مهموس من المخرج يحتاج إلى أسنان وإلاّ خرج صوته مشينا
V.	XI.	
VI. – ن	XII. – ذلقيّ	XVI. ينتمي أيضا إلى حروف الغنّة، ليس عسير لا يحتاج إلى أسنان
VII.	XIII.	
VIII. – ي	XIV. – لين	XVII. ضعيف المخرج لا يقوم وحده
IX.		

فالملاحظ من خلال هذا التّقسيم البِنويّ الصّوتيّ أو الأكوستيكيّ لكلمة (سنّي) بأنّها تبدو جليّا قد "ابتدأت قويّة، ثمّ هبطت قوّتها في الوسط، ثمّ ضعفت جدّا في نهاية الكلمة." (مرتاض، الألغاز الشعبية في الجزائر، 2007) ، فالتّحليل البِنويّ عند عبد الملك إمّا يكون مساعدا للقارئ في تجلّي طريقة إلقاء الكلمة من جهة، وإلاّ فهو أبرز مجلّ للدّلالة والمعنى الذي تحمله الكلمة، وهو ما بيّناه في كلمة (سنّي) على سبيل المثال.

ولم يقتصر عمل النّاقد فقط على الدّراسة الصّوتيّة للكلمات التي تتواتر في الألغاز، وإنّما قد سعى إلى العمليّة الإحصائيّة لعدد واسع من الألغاز ومن ثمّ تبيين حالاتها من النّاحيّة العلميّة، مثلا أن يشير في اللّغز الواحد إلى أيّها تكون غالبة في اللّغز إمّا الأصوات الضّعيفة أو المتوسّطة أو حتّى المرتفعة، ومن هنا يكون عبد الملك مرتاض قد أدخل قراءاته للألغاز الشّعبيّة الجزائريّة حيّز العلميّة، هذا وإن كان نفسه يرى بأنّ المنهج الإحصائيّ "ليس في كلّ الأحوال صالحا لأن يكون منهجا" (مرتاض، بنية الخطاب الشعري، 1986)، وهذا أمر وارد جدّا.

وهذا عن تطبيق عبد الملك مرتاض للمنهج البِنويّ في الجانب النّثريّ من كلام العرب، بيد أنّه لم يقتصر تحليله بنويّا للخطابات والنّصوص الأدبيّة على الجانب النّثريّ فحسب، بل إنّنا نجده قد قام بتحليل بِنويّ لقصيدة الشّاعر الجزائريّ محمد العيد آل خليفة – رحمه الله–؛ قصيدة (أين ليلاي)، حيث يرى عبد الملك مرتاض بأنّ محمد العيد آل خليفة هو "آخر شاعر جزائريّ يحافظ على التّقاليد الشّعريّة العربيّة." (مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي، 1992) ، وهذا السّبب هو ما كان ربّما دافعا أساسيّا محفزّا للشّاعر في أن يقسّم قصيدته ويحلّلها وفق منهج بِنويّ يتغيّا من خلال إلى دراسة بُنى القصيدة المركّبة لها، انطلاقا من الكلمات إلى الإيقاع فالقوافي، ووقوفها على عمليّة الاختيار والتّراكيب للكلمات الشّعريّة ومدلولاتها.

وحتّى في كتابه "بنية الخطاب الشّعريّ" والذي سعى من خلاله إلى تشريح قصيدة شعريّة موسومة بـ: "أشجان يمنيّة" فقد بيّن من خلال تحليله البِنويّ لها من دراسة الجانب التّركيبيّ فيها، أيّ من على مستوى المفردة ودلالتها، وكذا الجمل والعبارات ومعناها في القصيدة ككلّ، وإن كان في هذه القصيدة بالذّات قد مزج فيما بين عديد المناهج تارة المنهج

البِنويّ، وتارة أخرى المنهج الأسلوبيّ، وذلك لغزارة مدلولات القصيدة، بل وغزارة الصّور الجماليّة والفنّيّة في القصيدة في حدّ ذاته.

ويبقى في الأخير أن نشير إلى فكرة مهمّة جدّا، وبالرّغم من أنّنا قد ذكرنا ميل عبد الملك مرتاض للدّراسة الإجرائيّة وفق المنهج البِنويّ في كثير من المواضع في تآليفه النّقديّة التي تحلّل النّصوص والخطابات الأدبيّة سواءً أ كانت نثريّة أم شِعريّة، إلاّ أنّنا نجزم بفكرة واردة جدّا بين النّقاد المعاصرين اليوم، وهي أنّ عبد الملك مرتاض ما كان بِنويّا ألبتّة، وهو ما أعرب عنه في قوله: "وقد اقتربت الآن من العشرين دراسة، أجمع على أنّني لم أكن بِنويّا، وإنّما كنت ذا منهج مستقّل داخل هذه البِنيويّة." (فاضل)

ومن هنا، نفهم بأنّ عبد الملك مرتاض وإن كان لا يخرج عمّا كان معهودا من النّاحيّة الإجرائيّة عند البِنويّين من طرق وإجراءات يتغيّون من خلال الفلي في دخلانيّ النّصوص والخطابات وبناها العميقة المكوّنة لها، إلاّ أنّه قد لامس ما نهجه البِنويّون في تحليلهم للنّصوص في مختلف نصوص الأدب العربيّ التي حلّلها سواءً أ كانت نّثريّة كالألغاز، أو شِعريّة كالقصائد التي ذكرناه، فمضى يحلّل ويقسّم بُناها الصّوتيّة من جهة، وكذا بُناها التّركيبيّة والإفراديّة من جهة أخرى، وبهذا يكن عبد الملك مرتاض مؤمنا بما وسمه بمنهج اللاّمنهج، ومطبّقا له في الآن نفسه.

1-2- ملامح المنهج الأسلوبيّ عند عبد الملك مرتاض:

تفنّن النقّاد العرب المعاصرين في إبانة مدى العُلقة الوشيجة فيما بين فنّ البلاغة والنّظريّة الأسلوبيّة، ولعلّ من أبرز هؤلاء النقّاد ومن أكثرهم نباهة بهذه الموضوعة نذكر النّاقد الجزائريّ عبد الملك مرتاض، حيث أنّه يرى في الأسلوبيّة بأنّها "بنت الأسلوب ... لأنّها وُلِدت من أجل أن تخدمه بمنهج علميّ." (مرتاض، الألغاز الشعبية في الجزائر، 2007) ، وبالتّاليّ فإنّ الأسلوب والأسلوبيّة عند عبد الملك بمثابة العلاقة الرّابطة فيما بين الكائن والكينونة، أو بمثابة علاقة الأب بابنه الصّغير.

وإنّ اشتغال عبد الملك مرتاض على المنهج الأسلوبيّ يكاد يكون بارزا في مختلف كتاباته التي خصّها لتحليل الخطابات الأدبيّة والشّعريّة على السّواء، ولعلّ أبرزها ما ورد في

كتابه "الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة"، وفي كتابه "شِعريّة القراءة، قراءة القصيدة"، إذ أنّ عبد الملك مرتاض قد استعمل فيها المنهج الأسلوبيّ بشكل بارز جدّا.

ومن بين المواضع التي وردت مشيرة إلى اهتمام عبد الملك مرتاض بالمنهج الأسلوبيّ، حديثه في مسألة المرادفات اللّفظيّة لمصطلح الانزياح، وهذه هي القضيّة التي أسالت الكثير من الحبر عند النقّاد العرب المحدَثين والمعاصرين على السّواء، فيذكر عبد الملك مرتاض بأنّ للانزياح عديد المرادفات اللّفظيّة، وهي ما تصلح بأن تكون مصطلحات ذات أصل عربيّ بحت، ومنها "العدول والخرق والتّوتير والفرق والبعد والهامش." (مرتاض، شعرية القراءة قراءة القصيدة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، 1994)، وذكر أيضا مرادفات أخرى تدلّ على معنى الانزياح في النّقد الأدبيّ، ومنها "الانحراف، والانتهاك والتّدمير والتّهديم." (مرتاض، شعرية القراءة قراءة القصيدة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، 1994) ، وهذا عن الجانب التّنظيريّ فيما ذكره عبد الملك مرتاض في المنهج الأسلوبيّ، أو في الأسلوبيّة بشكل أعمّ.

ولعلّ قراءات عبد الملك مرتاض لكثير من النّصوص والأقوال وفق رؤية أسلوبيّة فذّة، يظهر لنا مدى حذافته بمكامن هذا المنهج النّقديّ الصّارم، ومن ذلك وقوفه عن قول سيبويه: "حملت الجبل وشربت ماء البحر"، إذ يراه عبد الملك مرتاض مزيّنا للنّسيج اللّغويّ الأسلوبيّ، ومعلّلا ذلك فيما ذكره في هذا الشّأن: "هذا الكلام يفلت من تهمة الكذب ويرقى إلى مستوى النّسيج الأدبيّ الرّفيع، أرأيت أنّ احتمال هذا الجبل بدلالة انزياحيّة جديدة كأن يكون القصد من هذا الجبل هو عالما متبحّرا فيغتدي كناية عن الامتلاء بالمعرفة (...) ولذلك ينتقل من موقع الاستحالة، في منظور الاستعمال الحقيقيّ للّغة، إلى موقع الإمكان، في منظور انزياحيّ لها." (مرتاض، نظرية النص الأدبي، 2010) ، إذن، فاللّغة الانزياحيّة عند عبد الملك مرتاض إنّما هي من أسمى مراتب اللّغة التّواصليّة الأدبيّة، فهي ذات حمولة دلاليّة جماليّة فنّيّة تأثيريّة كبيرة، ولعلّ في المثال الذي قدّمناه آنفا دلالة واضحا على ذلكم الشّأن.

ولقد قدّم عبد الملك مرتاض كثيرا من الشّواهد الدّالة على اهتمامه بالمنهج الأسلوبيّ، وسعيه إلى كشف آليّاته ووظائفه وغايته، ومن ذلك ما ذكره في كتابه "شِعريّة القراءة، قراءة القصيدة" عن كثيرة المواضع الواردة فيها والتي تعجّ بالظّواهر الأسلوبيّة، ومن ذلك قول الشّاعر:

شربت عيني ماء الحزن

انفجرت

فمعلوم أنّ الحزن شأن محسوس، وهي حالة نفسيّة يمرّ بها الإنسان حينما يكون غير مسرور ولا مغتبط، وإنّما حينما يكون مقبوض النّفس، والعين يُرى بها ولا يشرب بها، وإنّما موضع الشّرب هو الفم، ففي هذين السّطرين الشّعريّين كثافة لغويّة دلاليّة، ومعناها "أنّ القلب حزن تحت وطأة عوامل خارجيّة مدلهمة، فدمعت العينان حتّى فاضتا دموعا مغزارة." (مرتاض ع.) ، فاللّغة، إذن، مرقت من ثوبها العاديّ إلى اللاّمألوف، وهذا ما يُصطلح عليه في الدّراسات الأسلوبيّة باللّغة الانزياحيّة، وهي الأبلغ تأثيرا والأشدّ توصيلا لمراد الباث.

وفي الأخير نلحظ أنّ عبد الملك مرتاض في مختلف تحليلاته للقصائد الشّعريّة وهو يوظّف المنهج الأسلوبيّ إنّما يقف على الشّاهد من الأبيات عند اللّغة الشّعريّة، أو اللّغة المنزاحة التي سعى بها إلى التّأثير في متلقّيه، فالمنهج الأسلوبيّ عند عبد الملك مرتاض هو منهج خصب يوظّف للكشف عن الأبعاد التّأثيريّة الانفعاليّة المبثوثة في الخطابات والنّصوص الأدبيّة المختلفة الشّعريّة والنّثريّة، والشّعريّة منها على وجه خاصّ.

1-3- توظيفات المنهج السّيمائيّ عند عبد الملك مرتاض:

كثرت التّآليف النّقديّة والكتب البلاغيّة والأسلوبيّة، وحتّى كتب السّيمائيّين التي اِتّخذت لها في إجراءيّتها مع النّصوص الشّعريّة منهجا واحدا أو منهجين قصد كشف حجاب اللّغة فيها، ومن ذلكم ما التمسناه في كتاب عبد الملك مرتاض الذي بيّن فيه بالتّفصيل–وإلى حدّ ما– تركيبة الشّعر في قصائد المعلّقات الجاهليّة، حيث اصطنع لنفسه منهجا إجرائيّا تحليليّا جديدا، مزاوجا من خلاله ما بين منهج سياقيّ، وآخر نسقيّ، ونعني بهما المنهج الأنتروبولوجيّ، والمنهج السّيمائيّ، وهو ما يقول فيه النّاقد بنفسه: "أنّه منهج مركّب من الأنتروبولوجيا والسّيميائيّة." (مرتاض ع.، السبع المعلقات مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها) ، غير أنّه لم يتوقّف عند هذين المنهجين المتلاقحين، وإنّما أضاف لهما منهجا آخر نقديّا، وهو المنهج التّأويليّ، وبالتّاليّ، اغتدى تحليل نصوص المعلّقات الجاهليّة مُحلًّا عند عبد الملك مرتاض في كتابه المذكور سلفا، وِفق ثلاثة مناهج نقديّة تمتزج ما بين المنهج السّياقيّ والمنهج النّسقيّ، وكانت تلكم المناهج: المنهج الأنتربولوجيّ، والسّيمائيّ، والتّأويليّ.

وسنقف عند المنهج السّيمائيّ بشكل ركيز، إذ يرى كثير من النقّاد المحدَثين بأنّ المنهج السّيمائيّ قد ظهر على يد "العالم اللّغويّ السّويسريّ فيردنان دوسوسير، ومع الفيلسوف الأمريكيّ شارل سندرس بيرس، وضمنيّا مع الفيلسوف الألمانيّ أرنست كاسيرر ومع بعض المناطقة وفلاسفة مدرسة فيّنا أمثال فريج وفيتغشتاين وروسل وكارناب." (المرابط، 2010) ، وقد تبنّى كثير من النقّاد العرب المعاصرين انتهاج هذا المنهج النّقديّ الحديث، نظرا لقربه وشدّة اِتّصاله بالنّص، ومن أبرز أولئك النقّاد العرب المعاصرين، نجد عبد الملك مرتاض، وقد استخدمه كمنهج إجرائيّ في كثير من تحليلاته للنّصوص والخطابات، وأبرزها كتابه "السّبع المعلّقات مقاربة سيميائيّة أنتربولوجيّة لنصوصها"، وأيضا كتاب "نظام الخطاب القرآنيّ (تحليل سيميائيّ مركّب لسورة الرّحمن)"، وكذلك كتابه "التّحليل السّيميائيّ للخطاب الشّعريّ"، وهذه عيّنة من أبرز الكتب التي اعتمد فيها عبد الملك مرتاض في دراسة نصوصها على المنهج السّيمائيّ.

إنّ عُرف على عبد الملك مرتاض أنّه لا ينهج منهجا واحدا في كتاباته الإجرائيّة في تحليل النّصوص والخطابات الأدبيّة، وهو ما عُرف باعتماده لنظريّة منهج اللاّمنهج، أيّ حسبه أنّ المنهج الواحد لا يفي بالغرض لدراسة أيّ خطاب كان، وإنّما دعا إلى وجوب "تضافر مساعي كلّ الكفاءات النّقديّة، والعبقريّات التّنظيريّة لمحاولة إيجاد مقاربة منهجيّة تبتعد ما أمكن، عن النّقص والخلل؛ وتزدلف ما أمكن من الكمال دون التّرويج بتعصّب أعمى لإيديولوجيا معيّنة." (مرتاض ع.، التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، 2001)، وهذا ما وسمناه من قبل الانفتاح على المناهج النّقديّة المتعدّدة في الخطاب الواحد.

ولعلّ من يراجع ما كتبه عبد الملك مرتاض في كتابه "نظام الخطاب القرآنيّ (تحليل سيميائيّ مركّب لسورة الرحمن)" يدرك لا محالة أنّه حين انتهاجه للمنهج السّيمائيّ في قراءة وتحليل السّورة الكريمة تحليلا سيمائيّا بأنّه قد جزّأ الدّراسة إلى ستّ مستويات، وهي ما تجلّي الدّراسة السّيمائيّة بشكل واضح، وهذه المستويات السّت هي:

المستوى الأوّل: في تأويليّة بعض المشكل من نصّ "سورة الرّحمن".

المستوى الثّانيّ: الزّمن القرآنيّ.

المستوى الثّالث: الحيّز القرآنيّ.

المستوى الرّابع: التّشاكل والتّباين في نصّ "سورة الرّحمن".

المستوى الخامس: نظام النّسج الخطابيّ في "سورة الرّحمن".

المستوى السّادس: البنية الإيقاعيّة في "سورة الرّحمن". (فوضيل)

فلعلّ ما نستجليه من خلال تقسيم الدّراسة لسورة الرّحمن عند عبد الملك مرتاض وتوزيعها على ستّ مستويات، وانتهاجه للمنهج السّيمائيّ، وهو الأنسب للدّراسة، بأنّه لن يستعمل هذا المنهج إلاّ "للكشف عن نظام العلامات في النّص." (مرتاض ع.، التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، 2001) ، وبالتّاليّ فقد يكون النّاقد عاكفا على مجموعة من الظّواهر الأسلوبيّة، وهي التي تبيّن نظام العلامات في النّص، ومن جملة تلكم الظّواهر ذَكَر: التّشاكل، والتّباين، والتّناص، والتّماثل، والانزياح، وهي أبرز الظّواهر الفنّيّة التي تواترت في "سورة الرّحمن".

ومن يراجع "سورة الرّحمن" ويقرأ ما كتبه عبد الملك مرتاض فيها من خلال تحليله السّيمائيّ يتّضح له بأنّها قد قسّمت عنده إلى بنيات من حيث الدّراسة، وهذه البنيات هي: البنية الكونيّة، والبنية العقابيّة، والبنية الثّوابيّة، فأمّا في حديثه في الأولى، فيرى أنّها اقتصرت على الكون، أيّ على الخالق، والمخلوق وهو الإنسان وباقي المخلوقات كالجان، وحديثه فيها عزّ وجلّ عن اللّيل والنّهار، وعن عظمة الخالق، وإبداع خلقه لهذا الكون الرّحيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ القُرْآنَ (2) خَلَقَ الإنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ البَيَان (4) الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَان (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَان (7) أَلاَّ تَطْغَوا فِي المِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَان (9) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَات الأَكْمَامِ (11) وَالحَبُّ ذُو العَصْفِ وَالرَّيْحَان (12) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (13)**﴾ (الكريم)

وأمّا في حديثه عن البنية العقابيّة، فقد أشار إلى وصف عظمة الله تعالى وقدرته، وإلى التّذكير بأنّ الخلائق أجمع إنّما خُلقت للعبادة والامتثال لأوامر الله والانتهاء عن نواهيه، وذكرهم بالوعد والوعيد عزّ وجلّ، وكيف سيكون عقاب المجرمين يوم الحشر.

ومن ناحيّة أخرى وفي حديثه عن البنية الثّوابيّة فإنّه ينقلب الحال عمّا هو عليه في البنية العقابيّة، ليأتي الآيات لتبيّن ما أعدّه الله للمتّقين والمحسنين من جنّات النّعيم.

وهذا عن تحليله لمختلف الظّواهر الواردة في "سورة الرّحمن" والتّطبيق عليها وِفق منهج سيمائيّ بحت، وأمّا من يراجع ما كتبه عبد الملك مرتاض في تحليله السّيمائيّ لقصائد المعلّقات السّبع يجده قد أجاد وإلى حدّ واسع في فلي النّصوص واستكناه مكنونها، وذلك بتقسيم النّصوص إلى مستويات يفسّر من خلالها نظام العلامات اللّغويّة والدّلائل اللّفظيّة التي اِنبنت عليها كلّ قصائد المعلّقات السّبع الجاهليّة.

وكان من أبرز المستويات الواردة في تحليل عبد الملك مرتاض للمعلّقات السّبع، وقوفه على شِعريّة المكان، واقتصر تمثيله على قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل

فتوضح المقراة لم يعف رسمها　　لمـا نسجتها من جنوب وشمأل

ترى بعر الآرام في عرصاتها　　وقلعاتها وكأنّها حبّ فلـفل

فالملاحظ أنّ الشّاعر امرؤ القيس قد استوقفته أماكن طلليّة تذكّر فيها الحبيب وفقدانه، وهي سقط اللّوى، والدّخول، وحومل، وتوضح، والمقراة، وهي الأماكن التي يرجع أصل الشّاعر إليها، وهي الأماكن التي ينسب إليها، فدلالة أو سيمائيّة المكان هنا تدلّ دلالة واضحة على الحزن لما فُقِد عند الشّاعر.

وما لفت انتباه النّاقد أيضا من حيث الدّراسة السّيمائيّة للنّصوص الجاهليّة من المعلّقات السّبع وقوفه على جماليّة الحيّز الطّلليّ، وأيضا توظيف الماء ودلالاتها عند الشّعراء الجاهليّين، ولكن الأبرز كان وقوفه على توظيف الشّعراء للمرأة في أشعارهم الجاهليّة وما تحمله تلك التّوظيفات من سمات ومزايا جماليّة تضفيها على القصيدة، ومن ذلك قول امرئ القيس:

خرجت بها أمشي تجر وراءنا　　على أثرينا ذيل مرط مرجّل

وكذا قول طرفة بن العبد:

ومن الحي أحوى ينقض المرد شادن　　مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد

وهذا ما يوحي بدلالة مباشرة إلى أنّ المرأة إنّما كانت تتبوّء بمكانة عاليّة عند شعراء المعلّقات انطلاقا من امرئ القيس وصولا إلى أشعار عنترة بن شدّاد.

والمعلوم بين النقّاد أنّ ظاهرة التّناص إنّما تندرج في حقل المنهج السّيمائيّ، وما ذلك لأنّه منوط بالظّاهرة اللّغويّة وبالتّراكيب اللّغويّة، ولهذا كان السّيمائيّون أولى به من حيث الدّراسة، ولعلّ مَن مِن الباحثين من يراجع نصوص القصائد الجاهليّة ومنها المعلّقات بشكل خاصّ يجدها تزخر بهذه الظّاهرة، ومن ذلك نستحضر قول امرئ القيس:

ألا أيّها اللّيل الطّويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وقد تناص عنه كثير من الشّعراء العرب بعده على غرار ما قاله الطّرماح بن حكيم الطّائيّ

ألا أيّها اللّيل الطّويل ألا أصبح بِمٍّ وما الإصباح منك بأروح

فالدّراسات السّيمائيّة عموما في تفكير عبد الملك مرتاض النّقديّ سواءً أكان ذلك في النّصوص والخطابات الشّعريّة أو النّثريّة إنّما تتغيّا دراسة نظام العلامات اللّغويّ في الخطاب، وهو ما قد أعرب عليه في قوله بأنّ المنهج السّيمائيّ يستعمل "للكشف عن نظام العلامات في النّص." (مرتاض ع.، التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي، 2001) ، وكانت أبرز تلكم العلامات وقوفه على الظّواهر الواردة في النّصوص التي حلّلها سيمائيّا على غرار "السّبع المعلّقات مقاربة سيميائيّة أنتربولوجيّة لنصوصها"، وأيضا كتاب "نظام الخطاب القرآنيّ (تحليل سيميائيّ مركّب لسورة الرّحمن)"، وكذلك كتابه "التّحليل السّيميائيّ للخطاب الشّعريّ"، والوقوف على جملة الظّواهر البلاغيّة الأسلوبيّة الواردة فيها.

ولم يتبق لنا إلاّ أن نشير إلى أنّ عبد الملك مرتاض يمثّل رأسا من رؤوس النّقد الأدبيّ المعاصر، وأنّه من دعاة الانفتاح على عدد كثير من المناهج الإجرائيّة أثناء تحليل النّصوص، لأنّه ليس يمكن للمنهج الواحد من أن يعرّي النّص ويكشف بؤر الجمال والفنّيّة والتّأثير فيها، وهو ما عُرِف على عبد الملك مرتاض بأنّه ينهج سبيل منهج اللاّمنهج في كتاباته أو في تحليلاته للنّصوص والخطابات الأدبيّة، وعموما فإنّ المناهج السّياقيّة والنّسقيّة عند عبد الملك مرتاض هي أدوات إجرائيّة يتغيّا بها الفلي في النّصوص وكشف مواطن جمالها وزينتها. وتبقى أبرز المناهج السّياقيّة التي وظّفها عبد الملك مرتاض في مختلف كتاباته الأدبيّة والنّقديّة: المنهج التّاريخيّ، والمنهج الاجتماعيّ، والمنهج النّفسيّ. وأمّا عن توظيفه للمناهج النّسقيّة، فألفيناه مشتغلا بشكل كبير والمنهج الأسلوبيّ، والمنهج البِنويّ، والمنهج السّيمائيّ، وينضاف إليهم المنهج التّأويليّ وكذا المنهج التّفكيكيّ، وهذه ككلّ جملة

المناهج النّسقيّة والسّياقيّة التي ألفينا عبد الملك مرتاض مشتغلا عليها، وموظّفا إيّاه في شتّى منجزاته الأدبيّة والنّقديّة.

المصادر:

القرآن الكريم.

- جهاد فاضل، أسئلة النّقد (حوارات مع النّقاد العرب)، (دط)، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا تونس، دت.
- سعد ظلام، مناهج البحث الأدبيّ، (دراسة تحليليّة تطبيقيّة)، ط2، مكتبة نهضة الشّرق، القاهرة، 1996.
- سيد قطب، النّقد الأدبيّ أصوله ومناهجه، ط5، دار الشّروق، القاهرة، بيروت، 1983.
- شارف فضيل، مستويات الخطاب النّقديّ عند "عبد الملك مرتاض" –قراءة في المنهج–، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في النّقد الأدبيّ الحديث والمعاصر، مشروع الخطاب النّقديّ في الجزائر بين النّظريّة والتّطبيق، جامعة وهران، الجزائر، 2013/ 2014.
- صلاح فضل، مناهج النّقد المعاصر، (دط)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، 1997.
- عبد الملك مرتاض، (أ.ي) دراسة سيميائيّة تفكيكيّة لقصيدة أين ليلاي، (دط)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1992.
- عبد الملك مرتاض، الألغاز الشّعبيّة في الجزائر، (دط)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2007.
- عبد الملك مرتاض، التّحليل السّيميائيّ للخطاب الشّعريّ تحليل مستوياتيّ لقصيدة شناشيل ابنة الحلبيّ، (دط)، دار الكتاب العربيّ، الجزائر، 2001.
- عبد الملك مرتاض، التّحليل السّيميائيّ للخطاب الشّعريّ، تحليل مستوياتيّ لقصيدة شناشيل ابنة الحلبيّ، (دط)، دار الكتاب العربيّ، الجزائر، (دت)، 2001.

- عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشّعريّ، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1986.
- عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، (دط)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1985.
- عبد الملك مرتاض، شِعريّة القراءة، قراءة القصيدة، تحليل مركّب لقصيدة أشجان يمانيّة، ط1، دار المنتخب العربيّ، بيروت لبنان، 1994.
- عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرّواية بحث في تقنيات السّرد، (دط)، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، 2005.
- عبد الملك مرتاض، في نظريَّة النَّقد، (متابعة لأهمِّ المدارس النَّقديَّة المعاصرة ورصد لنظريَّاتها)، (د.ط)، دار هومة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2010.
- عبد الملك مرتاض، مدخل إلى قراءة الحداثة، مجلة البيان، الكويت، لعدد 317، ديسمبر 1996.
- عبد الملك مرتاض، نظريّة النّص الأدبيّ، ط2، دار هومة، الجزائر، 2010.
- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ في الجزائر، (دط)، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، (دت).
- عبد الواحد المرابط، السّيميائيّة العامّة وسيمياء الأدب من أجل تصوّر شامل، ط1، منشورات الاختلاف، الرّباط المغرب، 2010.
- محمد مندور، معارك أدبيّة، (دط)، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر، الفجّالة القاهرة، (دت).
- يوسف وغليسي، الخطاب النّقديّ عند عبد الملك مرتاض، (دط)، رابطة إبداع الثّقافيّة، 2002.
- يونس بوناقة، التّميّز اللّغويّ في النّمط السّرديّ لرواية "الخنازير" لعبد الملك مرتاض، مجلّة اللّغة الوظيفيّة، جامعة الشلف، العدد 2، المجلّد 5.

الهوامش

1–الشارف فوضيل. *مستويات الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض – قراءة في المنهج.*

2–القرآن الكريم. *سورة الرحمان.*

3-جهاد فاضل. *أسئلة النقد – حوارات مع النقاد العرب*.

4-عبد المالك مرتاض. (2001). *التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي*. الجزائر.

5-عبد المالك مرتاض. *مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية*.

6-عبد الملك مرتاض. (2007). *الألغاز الشعبية في الجزائر*. الجزائر.

7-عبد الملك مرتاض. *السبع المعلقات مقاربة سيميائية أنثروبولوجية لنصوصها*.

8-عبد الملك مرتاض. (1986). *بنية الخطاب الشعري*. بيروت.

9-عبد الملك مرتاض. (1992). *دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي*. الجزائر.

10-عبد الملك مرتاض. (1994). *شعرية القراءة قراءة القصيدة تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية*. بيروت.

11-عبد الملك مرتاض. (1996). مدخل إلى قراءة الحداثة. *مجلة البيان بالكويت* .

12-عبد الملك مرتاض. (2010). *نظرية النص الأدبي*. الجزائر.

13-عبد الواحد المرابط. (2010). *السيميائية العامة وسيميائية الأدب من أجل تصور شامل*.